الإمام محمد متولي الشعراوي



جامع البيان في العبادات والأحكام

جمع المادة العلمية
منشاوي غانم جابر

كتب الحواشي وراجعها
مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة

٣

دار الندوة

إذن.. الحق سبحانه يعين من؟.. يعين من آمن به، ولكن من كفر فلا يعنيه. ذلك مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[2].

إذن الله له هدايتان: الأولى.. هداية شمل بها كل الناس جميعًا وهى هداية الدلالة، وهداية ثانية خص بها من جاءه مؤمنًا وهى هداية المعونة. ولذلك قال الحق سبحانه مخاطبًا رسول الله ﷺ:

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾[3].

وقوله سبحانه :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4].

وهل من المعقول أن ينفى الحق الهداية عن الرسول ثم يثبتها له؟.. نقول أن رسول الله دل على الهداية، والله أعان عليها.

❑❑❑

(١) سورة التوبة : الآية ٣٧.

(٢) سورة التوبة : الآية ٨٠.

(٣) سورة القصص : الآية ٥٦.

(٤) سورة الشورى : الآية ٥٢.

الباب الثاني

بني الإسلام على خمس

حدثنا عبيد الله بن موسى قال: أخبرنا حنظلة ابن أبي سفيان عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[1].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري [٨ ، ٤٥١٥] واللفظ له، وأخرجه مسلم [١٦] باب: بيان أركان الإسلام.

الفصل الأول

لا إلــه إلا اللــه

محمد رسول الله

١
فى أمر الشهادة

الشهادة هى الركن الأول من أركان الإسلام الخمسة، وهى التى يجب أن يقولها الإنسان المسلم المؤمن فى حياته ولو مرة واحدة وهى: **أشهد أن لا إله الا الله، وأن محمداً رسول الله**.. أى لا معبود بحق إلا الله ولا طاعة إلا لله. والطاعة كما نعرف هى: امتثال لأمر، واجتناب عن نهى. إذن فمجال لا إله إلا الله.. لا حدود له لأنه..

* **لا معبود بحق إلا الله .**
* **ولا مطاع فى تكليفه إلا الله.**
* **ولا امتثال لأمر أو اجتناب عن نهى إلا لأمر من الله، أو نهى من الله.**

الإنسان المؤمن إن امتثل للأمر بعد قوله: **لا إله الا الله**.. كان هذا الإنسان صادقًا فى قوله.

المؤمن الذى تكون كل تصرفاته موافقةً لمنهج الله سبحانه.. هذا هو الإنسان الصادق. أما الإنسان الذى يقول بلسانه: لا إله إلا الله.. ثم يطيع أحداً من خلق الله فى معصية الله، فلنا أن نقول له: أنت كاذب فى قولك لا إله الا الله.. لماذا؟.. لأن العمل لم يطابق القول حيث خالف العمل القول. فإذا آمن الإنسان بتكليف ثم فعل ما يناقضه فلنا أن نقول له: أنت منافق.. لماذا؟.. ذلك لأن المؤمن حين يؤمن بالله يكون صادقًا مع نفسه، والكافر حين ينكر الألوهية يكون أيضًا صادقًا مع نفسه، أما المنافق فإنه لا يصدق مع نفسه، ولا يصدق مع الناس.... إنه مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء.

المنافق لا صدق له مع النفس، بينما الكافر له صدق مع النفس، لأنه لم يقل: لا إله إلا الله.. فلم يعمل بمقتضاها. أما المنافق الذى قال : لا إله إلا الله.. فهى غير مطابقة لسلوكه، لذلك فهو غير صادق مع نفسه، وغير صادق مع ربه.. وهذه صفة من صفات المنافقين(١) .

صفة الوحدانية :

الله سبحانه وتعالى إله واحد أحد لا مثيل له، وغير مركب. ففى حياتنا العادية نعرف أن الشيء الواحد قد يكون مركبًا من أجزاء، لكن الله سبحانه فوق مستوى

(١) عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : «أربع من كُنَّ فيه، كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» أخرجه البخارى [٣٤ ، ٢٤٥٩، ٣١٧٨] واللفظ له، ومسلم [٥٨].

إدراك العقول.. فهو ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[(1)] والله سبحانه وتعالى لم يقل عليه أحد إنه مجمع من أجزاء، فالذى يجمع ـ يُكَوِّن ـ من أجزاء لا يطلق عليه إله.. فالله لا مثيل له، فلا نقول عليه: كل .. لأنه أحد ، ولا نقول عليه: كلى.. لأنه واحد لا أجزاء له. لذلك فالحق سبحانه حين ينبهنا إلى أنه لا إله إلا هو.. فلا بد لنا من الانتباه من الغفلة التى قد تعطى ـ والعياذ بالله ـ الألوهية لغير الله أو لشركاء معه فهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾[(2)].

(1) ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ قيل: إن الكاف زائدة للتوكيد؛ أى ليس مثله شىء.

وقيل: المثل زائدة للتوكيد؛ وهو قول ثعلب: ليس كهو شىء؛ نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ . وفى حرف ابن مسعود ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ .

والذى يعتقد فى هذا الباب أن الله جل اسمه فى عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمائه وعلىِّ صفاته، لا يشبه شيئا من مخلوقاته ولا يشبه به، وإنما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق، فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى؛ إذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق؛ إذْ صفاتهم لا تنفك عن الأغراض والأعراض، وهو تعالى منزه عن ذلك، وكفى فى هذا قول الحق: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . وقد قال بعض العلماء المحققين: التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة من الصفات. وزاد الواسطى رحمه الله بيانا فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ؛ وجلّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة؛ كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة. وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة. ﷺ (تفسير القرطبى: ١٦/ ٨، ٩).

(2) سورة البقرة : الآية ١٦٣ .

الله سبحانه هو الإله الواحد، الواجد لكل الخلق، بينما غفلة الناس هى التى أعمت بصيرتهم عن الإله الواحد، وجعلتهم يلتفتون إلى آلهة أخرى مزعومة بينما الحق سبحانه يقول لنا :﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ .. ذلك تنبيه للجميع من غفلتهم بأن يعرفوا الأمر الأزلى بأنه :﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ .

وهذه الشهادة هى شهادة بالألوهية مصداقًا لقول الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾(1) .

وخَلْقُ الله مؤمنون بالفطرة(2) وهى سنة الله فى خلقه الذين خلقهم عليها، فطرة نقية، والذى يجعلهم فى الحياة الدنيا يغفلون عن هذه الفطرة النقية هو

(1) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(2) يخبر الله سبحانه وتعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾ (تفسير ابن كثير ٢ / ٢٥٠).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة جمعاء هل ترى فيها جدعاء» متفق عليه: أخرجه البخارى [١٣٨٥] واللفظ له، ومسلم [٢٦٥٨].

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال، ذات يوم فى خطبته: «ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علّمنى يومى هذا. كل مال نحلته عبداً، حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم. وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانًا...». جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٨٦٥/ ٦٣].

تحرك شهواتهم فى نطاق الاختيار الممنوح لهم من الله، ولكن قبل أن توجد لهم هذه الشهوات شهدوا بألوهية الله سبحانه وتعالى، ذلك أن الطفل قبل أن يعقل، تحدثه عن الله.. فسوف يجد فى نفسه استجابة لن يجد صعوبة فى فهم معنى لفظ الجلالة (الله) فهو بفهمه البسيط تنسجم نفسه مع معنى الألوهية فإذا قلت للطفل: إن الله قد خلق هذا.. فإنه لا يتعجب بل يحس بحس وبفهم فطرى بأن هناك خالقًا، وبأن هناك مخلوقًا، وهذه الشهادة.. شهادة الفطرة قوية فى النفس البشرية، ومتعمقة فينا، حتى أنها فى الشدة مع المعصية بالبعد عن المنهج تكون الفطرة قوية فى النفس البشرية، ولذلك يقول الحق سبحانه عن أولئك المنحرفين عن المنهج:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (١).

أى أنهم وهم فى قمة الانكار والمعصية لا يستطيعون أن ينسبوا خلق السموات والأرض إلا لله، ومهما أداروا رءوسهم للبحث عن جواب فلن يجدوا إلا أن الخلق هو الله سبحانه وتعالى.

❊ ❊ ❊

(١) سورة لقمان: الآية ٢٥.

عن الأغر، أبى مسلم؛ أنه شهد على أبى هريرة وأبى سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ قال :

«إذا قال العبد: لا إله إلا الله والله أكبر، قال يقول الله عز وجل: صدق عبدى، لا إله إلا أنا وأنا أكبر. وإذا قال العبد: لا إله إلا الله وحده. قال: صدق عبدى. لا إله إلا أنا وحدى. وإذا قال: لا إله إلا الله لا شريك له. قال: صدق عبدى. لا إله إلا أنا، ولا شريك لى. وإذا قال: لا إله إلا الله. له الملك وله الحمد. قال: صدق عبدى. لا إله إلا أنا لى الملك ولى الحمد. وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال صدق عبدى. لا إله إلا أنا، ولا حول ولا قوة إلا بى»(١).

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

«مَنْ شَهِدَ أن لا إلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وأَنَّ عيسى عَبْدُ الله ورَسُولُهُ وكَلمتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ ورُوح منْهُ، والْجَنَّةُ حَقٌّ والنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ»(٢).

---

(١) حديث صحيح [صحيح سنن ابن ماجه: ٣٠٦١] .

(٢) متفق عليه: أخرجه البخارى [٣٤٣٥] واللفظ له، ومسلم [٢٨].

٢
لا إلـه إلا اللـه

الإنسان الذى ينطق بالشهادة ولو مرة واحدة فى العمر وهى **لا إله إلا الله، محمد رسول الله** .. فإن تلك الشهادة بواحدانية الله تعنى أن الخلق يدرك بالفطرة أن للكون إلهًا واحدًا وذلك أن كل المخلوقات الموجودة فى الكون تسجد لله بالإجماع، لم يخرج أى منها عن مراد الله، مصداق ذلك قول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾(١).

فمن الملاحدة من يقول ليس للكون إله، وغيرهم يقول للكون آلهة متعددة، فهم فى قمة التناقض؛ لأن الله **﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾**(٢) . وانظروا إلى الذى يقول : هناك الوسطية ... فلا نفى الإله، ولا أثبت التعدد، وذلك

(١) سورة الحج: الآية ١٨.
(٢) سورة الشورى: الآية ١١.

بالاستكثار فى أن نظام الكون يقتضى أجهزة كثيرة.. وآلهة متعددة وكل له تخصصه .. لمثل هذا المشرك بالله نقول: إن الله سبحانه يفعل بقدرة. ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾(١).

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى حديثه القدسى(٢) : [**يا عبادى لو أن**

---

(١) سورة البقرة الآية: ١١٧، وقال ابن كثير قوله تعالى ﴿ **وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه إذا قدّر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن أى مرة واحدة فيكون أى فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ وقال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما ... يقول له كن قولة فيكون

ونبه بذلك أيضاً على أن خلق عيسى بكلماته كن فكان كما أمره الله، قال الله تعالى ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ (تفسير ابن كثير: ١/ ١٥٣).

(٢) عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فسلونى الهدى أهدكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت فسلونى أرزقكم، وكلكم مذنب إلا من عافيت، فمن علم منكم أنى ذو قدرة على المغفرة فاستغفرنى غفرت له ولا أبالى، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ما زاد ذلك فى ملكى جناح بعوضة، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادى ما نقص ذلك من ملكى جناح بعوضة، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من ملكى إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ذلك بأنى جواد ماجد أفعل ما أريد عطائى كلام وعذابى كلام، إنما أمرى لشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون. أخرجه الترمذى رقم [٢٤٩٥] وقال: حديث حسن وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى رقم [٤٤٧].

أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد وسألنى كلٌ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك من ملكى شيئًا إلا كما ينقص المخيط من البحر ذلك أنى جواد وواجد وماجد عطائى كلام (كن) وعذابى كلام، إنما أمرى لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون].

فيامن تشفقون على الإله الواحد فى أن يتعب من إدارة هذا الكون بشتى نواحيه، ارتفعوا بمستوى الألوهية عن أمثال البشر؛ لأن الله سبحانه لا يباشر سلطانه فى الكون إلا بـ ..﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

أمر فى القمة :

والذين يقولون بوجود آلهة متعددة.. أقل التعدد إلهان، فإذا كان قد نُفِيَ وجود إلهين، فنفى وجود الآلهة المتعددة أولى؛ لأن وجود إلهين معناه أنهما سيكونان معبودين لهما أوامر ونواه.. الأوامر والنواهى تحتاج إلى طاعة، والكون يحتاج إلى تدبير، وهنا نقول لهم: هل إله واحد من الإلهين يصلح بأن يقوم بأعباء الكون أم إنه يحتاج إلى مساعد؟.. فإذا كان هذا الإله يحتاج إلى مساعد فهذا نقص فيه ولا يصلح أن يكون إلهًا، وإن كان هناك تخصص.. أى هذا متخصص فى شيء، والآخر متخصص فى غيره، فما يقوم به هذا الإله يعجز عنه الإله الآخر ولو كان ذلك كذلك لفسدت السموات والأرض واختلف الناس فريقين كل فريق يتبع إله، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾(1) .

(1) سورة المؤمنون: الآية ٩١. قال ابن كثير: ينزه نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك =

كذلك لو كان هناك أكثر من إله، فواحد يريد شيئًا والآخر لا يريد أن يكون.. فالشيء إما أن يكون وإما لا يكون.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(1).

الله سبحانه وتعالى حينما أمرنا بتوحيده جعل العبودية له وحده، والتلقى منه وحده فأراحنا من ذل العبودية لغيره سبحانه، واقرأ قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾(2).

أى أن هناك عبداً أسياده كثيرون وشركاء فيه، هذا يأمره بأمر، والآخر ينهاه عنه..

= فى الملك والتصرف والعبادة فقال تعالى: ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾ أى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، ولكن المشاهد أن الوجود منتظم ومتسق، فكل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض فى غاية الكمال والجمال ﴿ **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ سورة الملك: الآية ٣.
ثم لكان كل منهم أن يطلب قهر الآخر، فيعلو بعضهم على بعض، وقد ذكر المتكلمون هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً. فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً ولهذا قال سبحانه: ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾ أى عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً (تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٤٥ ، ٢٤٦).

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢. وهى كسابقتها فى المعنى والدلالة.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٩. قال ابن عباس ومجاهد: هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص.
فلو أن هناك شركاء يتنازعون فى عبد مشترك بينهم، ورجلا سلما لرجل.. أى خالصا لرجل لا يملكه أحد غيره ﴿ **هل يستويان مثلا** ﴾ فلا يستوى هذا وهذا، فكذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له فأين هذا من هذا؟ (تفسير ابن كثير ٣ : ٥٣).

هذا العبد لا بد أن لا يطيق حياته لكثرة المتحكمين فيه والآمرين له. أما العبد المملوك لسيد واحد فلا شك أنه في راحة كبيرة عن الآخر. فأطيعوا أمر الله و ..

﴿ لا تَتَّخِذُواْ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾(١).

الله سبحانه يقرر أنه لا إله إلا هو، ولا ينبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه، أما القول بوجود إلهين متساويين فى الوجوب والقدم، وصفات الكمال فقول مستقبح فى العقول فلم يقل به أحد من العقلاء، ذلك أن النهى فى قوله سبحانه: ﴿ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ ﴾ نهى عن إثبات التعدد.

إذن فدعوة الله لنا أن لا نتخذ إلا إلهاً واحداً هى راحة لنا، فهو سبحانه قبل أن يطلبها منا شهد بها لذاته فقال:

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾(٢).

---

(١) سورة النحل : الآية ٥١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨ . ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ شهد تعالى وكفى به شهيداً، وهو أصدق الشاهدين، وأعدلهم، وأصدق القائلين ﴿ أنه لا إله إلا هو ﴾ فهو المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه وهم الفقراء إليه وهو الغنى عما سواه، كما قال تعالى: ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك ﴾ الآية، ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام.. (تفسير ابن كثير ١٠/ ٣٣٤). =

فهذه شهادة الذات للذات بوحدانيته، وهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ (١) .. فالله صادق فيما قال، ولو كان هناك إله آخر هو الذى خلق فأين هو؟.. فلماذا لم يعارض الله ويقول: أنا الذى خلقت؟.. وحين تأتى الدعوى بلا معاند ولا معارض تسلم لصاحبها .

الله هو الإله الواحد الذى لا إله إلا هو ليس هناك من يستطيع أن يعارضه فى كونه؛ لذلك لحظة أن يحكم الله حكمًا غيبيا يقول: أنا حكمت هذا الحكم، مع أنكم مختارون فى أنكم تفعلون أو لا تفعلون، ولكننى حكمت بأنكم لا تفعلون، وما دمت حكمت بأنكم لا تفعلون ـ ولكم القدرة على أن تفعلوا ـ ثم لا تفعلون فهذا دليل على أنه لا إله غيرى يعينكم على أن تفعلوا.

إذن..

* **فشهادة الله بالوحدانية هى شهادة الذات للذات.**
* **والملائكة شهدوها شهادة الإقرار.**
* **وأولو العلم شهدوا شهادة الاستدلال.**

قضية الوحدانية هذه أكدها الحق بقوله:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾(٢) .

= وقال الواحدى فى الوسيط : قال الزجاج : معنى شهد بين الله وأظهر. وشهدت الملائكة بمعنى : أقرت بتوحيد الله، وأولو العلم أى شهدوا بتوحيده بما ثبت عندهم (تفسير الوسيط ٢ / ١٨).

(١) سورة طـه: الآية ١٤. هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿فاعبدنى﴾ أى وحدنى وقم بعبادتى من غير شريك.

(٢) سورة النحل الآية ٥١.

هـذا هو معـنى الغيبـية، والحـق سبحانه يؤكد الألوهيه بذاته لماذا؟. لأنه ما دامت المسألة رهبة، فرهبتك للمتكلم خير من رهبتك للغائب، ولذلك نحن فى الصلاة نقول:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(1).

إننا لم نقل: إياه نعبد؛ لأنك بعد أن استحضرت صفات الجلال العظيمة لله، أصبـحت أهلاً للخطاب مع الله؛ فـتـقـول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. ذلك بعـد أن استحضرت بالفطرة الإله تكون لك المواجهة لذاته.

(1) سورة الفاتحة: الآيات من ٢– ٥. ومعنى ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ أى سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدنى أحد من العالمين وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة، وحمد الخلق مشوب بالعلل ومعنى ﴿**رب العالمين**﴾ أى مالكهم وكل من ملك شيئا فهو ربه، فالرب هو المالك وهو اسم من أسماء الله تعالى.

﴿**العالمين**﴾ قال قتادة: العالمون جمع عالَم، وهو كل موجود سوى الله تعالى، وقال ابن عباس: العالمون: الجن والإنس دليله قوله تعالى: ﴿**ليكون للعالمين نذيرا**﴾ ولم يكن نذيرا للبهائم.

﴿**الرحمن الرحيم**﴾ وصف نفسه تعالى بعد ﴿**رب العالمين**﴾ بأنه ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ لأنه لما كان فى اتصافه برب العالمين ترهيب، قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب. ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه فيكون أعون على طاعته وأمتع.

﴿**مالك يوم الدين**﴾ المالك للشيء هو المتصرف فيه والقادر عليه والله عز وجل مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته لا يمتنع عليه منها شيء، و﴿**يوم الدين**﴾ هو يوم الجزاء على الأعمال والحساب.

﴿**إياك نعبد**﴾ معناه إياك نطيع، ونطق المكلف به إقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى. إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك.

﴿**وإياك نستعين**﴾ أى نطلب العون والتأييد والتوفيق. (تفسير القرطبى ص ١٣٥، ١٣٦، ١٣٩، ١٤٥).

كفار قريش عندما طلب رسول الله ﷺ منهم أن يشهدوا أنه لا إله إلا الله، قاوموا ذلك لأنهم لو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تقال لقالوها وسكتوا، ولكنهم يعرفون مطلوب هذه الكلمة - **الشهادة** - إنهم عرفوا أنه لن توجد سيادة ولا عبودية، ولا أوامر لأحد غير الله.. فلم يقولوها.

فكيف لا تكون شهادة لا إله إلا الله ضرورة لنا وقد شهد الله بها .

❊ ❊ ❊

٣
وأن محمدًا رسول الله

الإيمان الأول بالله، كان من رسول الله، ﷺ؛ لقوله تعالى:

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥ وقد وردت أحاديث فى فضل خواتيم سورة البقرة منها ما رواه البخارى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه». أخرجه البخارى [٥٠٠٩] وعن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من بيت كنز من تحت العرش لم يعطهن نبى قبلى» أخرجه أحمد فى مسنده [٥/ ١٥١، ١٨٠].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه...**﴾ قال النبى ﷺ: «أحق له أن يؤمن» أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٢٨٧] وصححه، وقال الذهبى: منقطع.

وبعد ذلك يأتى إيمان الذين أبلغهم الرسول بالدعوة ﴿ **والمؤمنون**﴾ وبعد ذلك يمتزج إيمان الرسول بإيمان االمؤمنين.

﴿ **كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾[(١)].

فبذلك كل من الرسول والمؤمنين آمنوا بالله.

إذن.. الإيمان الثانى هو **الإيمان بالرسول** ﷺ والإيمان أيضًا بالرسالة التى جاء بها، فيجمع الله الرسول والمؤمنين فى إيمان واحد، لأن الرسول آمن بالله، ثم بلغنا الرسول ﷺ فآمنا بالله وبه ـ بالرسول ـ ثم امتزج الإيمان فصار إيماننا هو إيمان الرسول، وإيمان الرسول هو إيماننا ﴿**كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ**﴾.

والرسول فى مرحلته الأولى سَبَقَ بالإيمان بالله، والرسول مطلوب منه حتى حين يؤمن بالله، أن يؤمن بأنه **رسول الله**.. ألم يقل الرسول ﷺ: «**أشهد أن محمداً رسول الله**..» فإنه ﷺ إذا ما أعجبه أمر فى ذات سيرته يقول: «**أشهد أنى رسول الله**..» إنه كان يقولها بفرحة.

الصحابى الجليل جابر بن عبد الله كان عليه دَيْنٌ ليهودى، وكان لجابر نخيل ينتج ثماراً، لكنه خاس[(٢)] ـ لم يثمر ـ النخيل، وجاء وقت السداد فذهب

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥ .

(٢) **خاس** الشيء يخيس خيساً: تغير وفسد وأنتن. وخاس الطعام : كسد حتى فسد. (لسان العرب : ٦/ ٧٤).

الصحابة لرسول الله فقالوا: يا رسول الله نريد أن ننظر لجابر ـ أى يؤجلوا الدين الذى عند جابر لليهودى ـ ويتكلم الرسول، لكن اليهودى لم يقبل وساطة النبى ﷺ وعاود الرسول الوساطة فلم يقبلها اليهودى للمرة الثانية، فذهب رسول الله إلى بستان جابر بن عبد الله وجاس ـ مشى ـ خلال النخيل ثم قال ﷺ :

ـ جُزّ (أى اقطع التمر) وسدد دينك.

وذهب جابر بن عبد الله وجز التمر وأدى ما عليه من دين لليهودى، وبقى عنده ما لم يبْقَ عنده من قبل، ولما جاء جابر للرسول وقال له ذلك، فقال له الرسول ﷺ : أشهد أنى رسول الله[1]. إذن فرسول الله يشهد أن لا إله إلا الله...

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كان بالمدينة يهودى، وكان يسلفنى فى تمرى إلى الجذاذ، وكانت لجابر الأرض التى بطريق رومة فجلست فخلا عامًا، فجاءنى اليهودى عند الجذاذ ولم أجد منها شيئًا، فجعلت أستنظره إلى قابل، فيأبى فأخبر بذلك النبى ﷺ فقال لأصحابه : «امشوا نستنظر لجابر من اليهودى». فجاؤونى فى نخلى ، فجعل النبى ﷺ يكلم اليهودى، فيقول : أبا القاسم لا أنظره. فلما رأى النبى ﷺ قام فطاف فى النخل، ثم جاءه فكلمه. فأبى. فقمت فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدى النبى ﷺ فأكل، ثم قال: «أين عريشك يا جابر؟» فأخبرته، فقال : «افرش لى فيه». ففرشته فدخل فرقد ثم استيقظ فجئته بقبضة أخرى فأكل منها، ثم قام.فكلم اليهودى، فأبى عليه فقام فى الرطاب فى النخل الثانية، ثم قال: «يا جابر، جذ واقض». فوقف فى الجذاذ فجذذت منها ما قضيته وفضل منه. فخرجت حتى جئت النبى ﷺ فبشرته فقال : «أشهد أنى رسول الله». أخرجه البخارى [٥٤٤٣].

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

نحن نعرف أن الإيمان بالله وكل ما يتعلق بالإيمان لا بد أن يكون غَيْبِيًا، فلا يوجد إيمان بمحسوس أبداً، فالأشياء المحسوسة لا يدخلها إيمان لأنها مشهودة. فإيماننا بالله ورسوله هو شرط الإيمان للمسلم ليكون إيمانه وإسلامه صحيحاً.

والرسول ﷺ يقول:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٢).

والإسلام لا يكتمل إلا بشهادة أن محمداً رسول الله فقد قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(٣).

جاء أبو سفيان يتحسس جيش النبى ﷺ على مشارف مكة، فلقى العباس ابن عبد المطلب فأخذه وذهب إلى النبى ﷺ.

فقال له النبى: أما لك أن تؤمن يا أبا سفيان، وتشهد أن لا إله إلا الله.

فقال أبو سفيان: أشهد أن لا إله إلا الله.

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨.

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى [١٥] واللفظ له، ومسلم [٤٤ / ٧].

(٣) سورة الشرح : الآية ٤.

فقال له النبى: وأن محمداً رسول الله.

فقال أبو سفيان: أما هذه ففى النفس منها حاجة.

فقال الرسول: لا يصح إسلامك إلا بها(١).

❑ ❑ ❑

(١) قال رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله» قال: بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !!! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئًا بعد، قال: «ويحك يا أبا سفيان !!! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله» قال: بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!! أما هذه والله فإن فى النفس منها حتى الآن شيئًا، فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ قبل أن تضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم، قال العباس، قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئًا، قال: «نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن». أخرجه الطبرى (٣/ ٥٢ - ٥٤) فى تاريخه، وله شاهد من حديث مسلم (١٧٨٠).

الفصل الثاني

وإقام الصلاة

﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[1]

(١) سورة النساء: الآية ١٠٣.

عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ:

«قال الله تعالى: إِنِّي فَرَضْتُ عَلَى أُمَّتِكَ خَمْسَ صَلَوَاتٍ وَعَهِدْتُ عِنْدِي عَهْدًا أَنَّهُ مَنْ جَاءَ يُحَافِظُ عَلَيْهِنَّ لِوَقْتِهِنَّ أَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهِنَّ فَلا عَهْدَ لَهُ عِنْدِي» (١).

قال الألباني: حديث حسن [صحيح سنن أبي داود: ٤١٥].

١
متطلبات العبادة

الناس يفهمون أن العبادة لله سبحانه وتعالى هى.. الصلاة، وصوم رمضان، وأداء الزكاة، والحج لمن يستطيع ذلك لأن..

* الصلاة هى ولاء دائم لله خمس مرات فى اليوم والليلة.

* وصيام رمضان شهر واحد فى السنة.

* والزكاة عطاء من فائض المال.

* والحج ترك للمال والأولاد والأهل.

كل ذلك لشحن الإنسان بالطاقة لينطلق إلى عمل الخير، وإلى طاعة الله سبحانه. وأنت لو نظرت إلى هذه العبادات لوجدت أن لها متطلبات، فالصلاة

تحتاج إلى قوة بدنية ليستطيع الإنسان الركوع والسجود[1]، والركوع والسجود محتاجان إلى أن يكون فيك حياة، وفيك قدرة على الحركة، ولكى تستطيع ذلك فلا بد أن تأكل. إذن فأنت محتاج للغذاء ليعطيك القدرة على استمرار حياتك ولكى تزرع الأرض فأنت تحتاج لمعرفة أمور كثيرة، منها معرفة طبيعة الأرض، وانتقاء البذور الجيدة، ومعرفة أوقات الزراعة والرى، ثم موعد الجنى.

وكل هذا لا بد له من علم وأجهزة كثيرة تتيح لك ما تحتاج إليه. فأنت محتاج إلى علماء يدرسون طبيعة الأرض، وإخصائيون يختارون أجود أنواع البذور، فإذا أردت أن تحرث الأرض لتضع البذور فيها، فأنت محتاج إلى محراث، والمحراث من الحديد، والحديد لا بد أن يوجد من يستخرجه لك من باطن الأرض، ثم لابد له من مصنع لصهره وتنقيته، ثم من يشكله إلى محراث ليشق به الأرض، وبناء مصنع الحديد لا بد له من مهندسين، ومن تخطيط، ومن عمال، والآت يتم تركيبها فى المصنع، ومن عمال صيانة، لصيانة هذه الآلات.. وهذا جزء يسير جداً مما تحتاج إليه من أجل أن تحصل على قطعة من رغيف لازم لحفظ حياتك، وإعطائك القدرة والطاقة لتؤدى إحدى أركان العبادات وهى.. الصلاة، ولذلك فالعمل فى الحياة واجب لأنه يوفر لك كل ما تحتاجه لتكون لديك القدرة والقوة.

والصلاة هى أحد أركان الإسلام، ولكى تستطيع أداءها لا بد من أن

(١) قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون**﴾ سورة الحج: الآية ٧٧.

تستر[١] عورتك، ولستر العورة، لا بد من شراء ما يسترها، فبائع القماش الذى سخره الله لك، يفتح محالاً لبيع القماش الذى يأتى به من مصنع النسيج، ومصنع النسيج محتاج إلى آلات ومهمات وعمال، وبحث علمى عن كيفية إتمام نسيج القماش، ومخزن لتخرين الإنتاج فيه، وكذلك مصنع النسيج يحتاج إلى محلج ومصنع للغزل، والمحلج محتاج إلى حقل ينتج القطن.. وهكذا إلى أن يكون لديك ما يستر العورة فى الصلاة، فكل ما يستر العورة فى الصلاة هو واجب شرعى.. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

العبادة فى معناها العام هى كل حركة فى الحياة تؤدى إلى بقاء الصالح على صلاحه أو زيادته صلاحًا. ففى الصلاة أنت محتاج إلى الماء[٢] الذى يبقى حياتك، وقديماً كانوا يشربون من البئر.. إياك أن تردم بئرًا يشرب منه الناس؛ لأنك فى هذه الحالة جئت إلى النافع فأفسدته، ولكن إن كنت تستطيع أن تزيده صلاحًا فزده، كأن تبنى للبئر جدرانًا تقيه من الردم. أو أن يأتى إنسان ويأخذ الماء

(١) **ستر العورة** شرط لصحة الصلاة فإن انكشف شيء من عورة المصلى لم تصح صلاته وعورة الرجل ما بين السرة والركبة؛ لما روى أبو سعيد الخدرى ﷺ أن النبى ﷺ قال: «عورة المؤمن ما بين سرته إلى ركبته» ضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٨٢٦) أما المرأة الحرة فجميع بدنها عورة إلا الوجه والكفين لقوله تعالى: ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها**﴾ وما ظهر منها قال عنه ابن عباس رضى الله عنه «وجهها وكفيها والخاتم». (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٤).

(٢) عن أبى هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله تعالى عليه» أخرجه أبو داود [١٠١] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود رقم [٩٢].

فى قرَبٍ ويوصله للناس فى منازلهم، وكذلك قد يبنى إنسان خزانًا وله مواسير تجعل الماء يصل إلى بيت كل فرد.

ومن العبادة أيضاً أن تفكر وتتدبر فى الكون، وذلك ساعة أن ينزل(١) المطر إلى الجبل، فأنه لا يستمر على السفح بل ينزل ليملأ الوادى، ثم قد يرفع من الوادى إلى الجبل. إذن فمن هو أعلى يُعطى أولاً، ومن هو أدنى يُعطى ثانياً.. ذلك هو تبادل النفعية فى الكون. والذى بنى خزانات المياه فكر فى أن يرفع الماء إلى أعلى ليعطى الأدنى، فبنى خزانات أعلى من كل المنازل، ثم مد منها المواسير فأعطت الماء لكل منزل.. ذلك هو ازدياد الصالح صلاحًا، فعمله هذا عبادة.

وإذا جلست فى سوق القرية، تجد أن كل إنسان قد جاء بشىء ليبيعه، هذا معه عجل بقر، وآخر معه فحل جاموس، وهذا معه عنزة وهذا معه خضراوات.. كل ذلك جاءوا به ليبيعوه فى السوق. وتجد أناساً آخرين جاءوا وليس معهم شىء إلا المال ليشتروا، وعندما تنتهى السوق تجد الصورة قد انعكست، فالذين جاءوا إلى السوق بسلعهم خرجوا ومعهم المال، والذين جاءوا بالمال عادوا من السوق ومعهم البقر والجاموس والخضراوات، فمن الذى دبر كل هذا؟.. الحق سبحانه وتعالى هو الذى دبر كل هذا لاستمرار حركة الحياة فى الكون، وألقى كل هذه الخواطر فى رؤوس خلقه، فمن كان محتاجا لمال ألقى الله فى خاطره أن يبيع ما

(١) عن ابن عباس قال: أقبلت يهود إلى النبى ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم: أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال «ملك من الملائكة فوكل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله» جزء من حديث صححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى [٢٤٩٢].

معه ليشترى ما يحتاج إليه بثمنه، والذى لديه مال ألقى الله فى خاطره أن يستثمره.

كما أنه فى التدبير الإلهى ما نجد أشياء عجيبة، إذ أن معظم الناس تكتب باليد اليمنى، بينما يوجد من البشر من يكتب بيده اليسرى. فإذا حاولت وأنت تكتب باليمنى أن تكتب باليسرى فلا تستطيع، فهذا تكوين إلهى فى عقل الإنسان. كذلك تجد من الناس من يستطيع أن يكتب بيديه الاثنتين مثل عمر بن الخطاب ﷺ فقد كان «أضبط» أى يفعل الأشياء بكلتا يديه بمهارة، كل هذا تجده فى الكون لتعرف أن:

﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾[1].

إنها طلاقة القدرة، فالله سبحانه وتعالى ينفذ مشيئته فى كونه كما يشاء، فالخلق ليست قوالب تصنع، لكن لكل من خلقه مراداً ومهمة فى الحياة وهى أن كل مخلوق ميسر لما خلق له[2] فهو سبحانه.. ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾[3] تدبيراً لا دخل للإنسان فيه وعلى أحسن صورة، فأعد كلاً لمهمته إعداداً إلهياً، وميّزه فى شىء أُعد من أجله فى هذا الكون، وباقى الخلق متميزون عن هذا فى غير ذلك، فكل الأمور فى الكون تنتظم إذا اتحدت مع مرادات الله، فالله سبحانه أحسن تدبير كل شىء وما يستطيع الإنسان أن يتدخل فيه وما لا يستطيع، لأنه سبحانه هو الذى أنزل منهج الحياة لهذا الإنسان.

❊ ❊ ❊

(١) سورة آل عمران : الآية ٤٧.

(٢) عن عمران قال: قلت: يا رسول الله، فيم يعمل العاملون؟ قال: «كل ميسر لما خلق له» أخرجه البخارى [٧٥٥١].

(٣) سورة السجدة : الآية ٥.

٢
حقيقة مراد الله من الخلق

إن حكمة خلق الله للخلق هى العبادة، فهل تأتى العبادة أولاً، أم أن الدافع على الخلق هو إرادة العبادة؟.. أى هل مراد الله سبحانه وتعالى من الخلق هو العبادة: فيتم الخلق لتتحقق تلك الإرادة وتصبح واقعاً؟

فيقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦ ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ قال ابن عباس: وما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا والتذلل لأمرنا.
فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟ قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذى قضاه عليهم؛ لأن قضاءه جار عليهم، لا يقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به فى العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه (تفسير القرطبى: ٢٧/ ١٢).

الله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده.. ولكن هل هذا هو حقيقة مراد الله؟.. فلو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخلقنا لنعبده لما خلقنا الله مختارين وهو فى غنى عن هذا.

الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يخلق ما يشاء وكما يشاء، فذلك أمر هين على الله، لكن لو أراد الله سبحانه أن يكون هدف الخلق محصوراً فى تحقيق العبادة ما استطاع أيٌ من خلق الله أن يشذ عن طاعته. لأن لله سبحانه صفة القهر، أى يستطيع أن يجعلنا مقهورين لعبادته مثل الملائكة وغيرهم الذين يسبحون بحمده ليل نهار.

اتباع المنهج:

والله سبحانه وتعالى لا يريد من عباده عبادة قهرية، فهو فى غنى عن الخلق كله؛ لأن ذلك لن يزيد فى ملكه شيئًا، ولن ينقص منه شيئًا. ولكن الله سبحانه خلقنا لنعبده اختياراً لا لنعبده قهراً ولنأتيه ونحن نملك حرية أن نتبع المنهج لأنه لو أراد أن نعبده قهراً لكانت مشيئته وذلك فى قول الله سبحانه.. ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴾(١).

الله سبحانه وتعالى ترك لنا حرية اتباع المنهج أو عدم اتباعه(٢)، ولكن بإرادتنا

(١) سورة الشعراء: الآية ٣-٤ ﴿ **لعلك باخع نفسك** ﴾ أى قاتلها ومهلكها لعدم إيمانهم وهذه تسلية من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار.

(٢) ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا** ﴾ [سورة الإنسان: آية ٣] أى بينا له سبيل الحق والباطل والهوى والضلالة، وعرفناه طريق الخير والشر بنصب الأدلة وبعث الرسول. وبينا له الطريق إن شكر أو كفر (زاد المسير: ١٨/ ١٤٢).

نحن ما يدفعنا حبا لله سبحانه وتعالى فى أن نفعل ما نفعل وليس بقهر الله لنا.. أى نعبده عبادة حب، ونحن نتمتع بطاعة الله سبحانه مختارين، بينما يوجد خلق من مخلوقات الله مقهورين، من تسبح بحمد الله لا تفتر ولا تتعب، وتفعل ما يأمرها الله سبحانه فلا تعصى أبداً(١). لكن الإنسان خلق ليعبد الله عن حب يأتيه طائعًا مختاراً قائلاً: يارب خلقتنى، وأعطيتنى الحرية، وزين لى الشيطان الدنيا ونعميها، ولكنى تركت هذه الزينة كلها، وعرفت أنك الحق، وأن ما تَعِدُ به هو الباقى وهو النعيم، وهو الحياة الآمنة المطمئنة، فأتيت إليك طائعًا مختاراً للالتزام بعبادتك، وهذا الالتزام هو حب لك، وتركت كل معصية من أجلك.. من أجل طاعتك.

وهنا يجب أن تفرق بين قول الحق: ﴿ **عباد** ﴾ ... و:﴿ **عبيد** ﴾(٢).. فكل خلق الله عبيد لله سبحانه وتعالى.. لماذا؟.. لأن هناك أمور قهرية يخضعون لها بلا إرادة منهم. حيث.. لا رأى لى حين أولد، ولا أحد يسألنى متى أريد أن أموت، ومن يكون أبى أو تكون أمى.. وغيرها، أشياء كثيرة أنا مقهور عليها. والله سبحانه حين يريد عبيداً فإنه يجرى عليهم صفة القهر، فلا يستطيعون أن يتحللوا منها أبداً.

---

(١) ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ [سورة التحريم: آية ٦].

(٢) اجتمعت العامة على التفرقة بين **عباد** الله والمماليك: فقالوا: هذا عبد من عباد الله، وهؤلاء **عبيد** مماليك. وجعل بعضهم العباد لله وغيره من الجمع لله وللمخلوقين (لسان العرب: ٣/ ٢٧١).

وفى الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: عبدى وأمتى كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى» (أخرجه مسلم: ٢٢٤٩).

لكن الله سبحانه وتعالى مراده أن نكون عباداً وليس عبيداً، فالفرق بينهما هو أن العبيد يكونون متساوون جميعاً فيما هم مقهورون فيه، ولكن العباد لهم منطقة اختيار يستطيع الفرد منهم أن يشذ ويقول: لن أطيع .. فالذى يختار مراد الله فكأنه يقول: يارب قد قلت افعل ولا تفعل، وأعطيتنى الاختيار فى ألا أفعل فيما قلت عنه افعل، وأعطيتنى الاختيار فى أن أفعل فيما قلت لا تفعل، ولكننى اخترت مرادك طواعية منى وحبًا فيك، ورغبة فى طاعتك، وخضوعًا لأمرك، وخشوعًا لقدرتك.. فإذا قلت: افعل فسأفعل.. لأنى أحبك، وإذا قلت: لا تفعل فلن أفعل.. خضوعًا وخشوعًا لك.. هذا هو الإنسان المسلم فى حركة الحياة، حبًا فى الله، وتقربا لله.. هؤلاء الذين يسميهم الله سبحانه عباداً فى قوله تعالى:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾[1].

(١) سورةالفرقان: الآيات ٦٣، ٦٥.. هذه صفات عباد الله المؤمنين الذين يمشون على الأرض بسكينة ووقار من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر وكان سيد البشر إذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له. وعن هؤلاء المؤمنين قال الحسن البصرى: إن المؤمنين قوم ذلل.. ذلت منهم الأسماع والأبصار والجوارح حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم مرض وإنهم لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن.. أما والله ما أحزنهم حزن الناس ولا تعاظم فى نفوسهم شىء ، طلبوا به الجنة؛ أبكاهم الخوف من النار، وإنه من لم يتغير بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ومن لم ير لله نعمة إلا =

هؤلاء هم العباد وليسوا العبيد؛ لأنهم قهروا أنفسهم حبًا لله سبحانه، فألزموا أنفسهم بمنهجه. إذن الذى ينفذ مراد الله فى التكليف الْمُنَزّل من الله، ويختار ما أمر الله به، ويلتزم به مع أنه يستطيع أن يفعل غير ذلك هؤلاء يكونون عباداً لله. وعباد الله الذين أعطاهم الرحمة حينما اختاروا التزموا.

عباد الله الذين اختاروا المنهج بحب، وساروا فيه بإخلاص هؤلاء لا يستطيع إبليس أن يغويهم أبداً، فقد قال الله عز وجل على لسان إبليس: ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(١) .. لأنه يعلم أن الله يرعاهم ويدافع عنهم، وتحاط بهم سياج عناية الله بمنع إبليس من الاقتراب منهم.. فهم العباد المخلصون.

الله سبحانه وتعالى يريد قلوباً تخشع(٢) بالحب فهو القائل: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ﴾(٣) ..

فهو يريد قلوباً تخضع له لا بالقهر، لأن الخضوع(٤) يمكن أن يأتى على

= فى مَطْعَمٍ أو مَشْرَبٍ فقد قل عِلمُهُ وَحَضَرَ عذابه.

و ﴿غراما﴾ أى ملازما دائماً.

ولهذا قال الحسن البصرى فى قوله ﴿إن عذابها كان غراما﴾ سورة الفرقان آية: ٦٥.

كل شيء يصيب ابن أدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض.

(١) سورة ص: الآية ٨٣.

(٢) **الخشوع**: الخضوع. وخشع: رمى ببصره نحو الأرض وغضه وخفض صوته. والخشوع يكون فى البدن والصوت والبصر. والخضوع فى البدن. (لسان العرب: ٨/٧١).

(٣) سورة البقرة: من الآية ٢٥٦ عن وسق الرومى قال: كنت مملوكا لعمر بن الخطاب، فكان يقول لى: أسلم فإنك لو أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين، فإنى لا أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم. فأبيت عليه فقال لى: ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ (الدر المنثور: ٢/ ٢٢).

(٤) الخضوع: هو التواضع والتطامن والانقياد. يقال: خضع يخضع خضوعًا فهو خاضع =

الرغم منك، ذلك إذا أمسك إنسان سوطاً ـ كرباجًا ـ وقال لك: افعل كذا.. وقلت: لا.. فضربك بقوة، وأحدث لك الضرب ألمًا فقمت تفعل له ما يريد، ولكن هل تفعل هذا بحب وبشوق؟.. لا، أنت تفعله وأنت مُكْرَه، والله سبحانه وتعالى وهو القادر لا يريد أن يكرهك، ولكنه يريد قلوبًا تخشع له من داخلها قلوباً منقادة له طوعاً.

القلب[1] هو المنطقة الحرة التي خلقها الله في الإنسان، فلا تستطيع أي قوة أن تجعلها مقهورة على شيء، فما بداخل قلبك هو ملك خاص لك، فليس للعالم سلطان عليه.. فقد يكرهك إنسان فتتظاهر له الحب، ولكن قلبك يكرهه ويرفضه، وقد تتظاهر لإنسان بالخضوع له.. لكن قلبك يمقته، والبشر مهما فعلوا بك من إكراه فإنهم لن يستطيعوا أن يرغموا قلبك على حب شيء تكرهه أو كُره شيء تحبه. فالقلب منطقة حرة لا يتدخل في أمرها إنسان، ولذلك قال

= وهم خاضعون - وخضع بالقول ألان كلامه. قال تعالى ﴿إن نَشأ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ منَ السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أعْنَاقهُمْ لَهَا خَاضعينَ﴾ - الآية رقم ٤ من سورة الشعراء، والمعنى أي فظلوا منقادين متطامنين (معجم الفاظ القرآن الكريم) مجمع اللغة العربية/ دار الشروق.

(١) **القلب**: هو اللحمة الصنوبرية الشكل المستقرة في التجويف الأيسر من الصدر، وهو على صغر حجمه أهم أعضاء الجسم، لأنه هو الذي ينظم حركة الدم في دوراته التي يترتب عليها تنقيته، وتوزيعه بطريقة منظمة على سائر أجزاء الجسم، ومنها المخ وسائر أجزاء المجموعة العصبية، وعلى هذين الأمرين تقوم الحياة ومن ثم يجعل القرآن الكريم القلب بمنزلة العقل لأنه السبب المباشر في حياة المخ. وإذا سلمنا بأن المخ هو أداة الشعور والتفكير، وقلنا بأن القلب هو أداة الحياة نفسها تبين لنا مدى قيام الشعور والتفكير على القلب وقد ذُكِرَ ـ القلب ـ في القرآن أكثر من مائة مرة مفرداً ومثنى ومجموعًا ـ جمعًا ـ ومضافًا (معجم الفاظ القرآن الكريم بمجمع اللغة العربية طبعة دار الشروق).

سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ (١) .. لماذا؟.. لأن الإكراه فى هذه الحالة يكون إكراهًا للقالب وليس للقلب.

والله سبحانه وتعالى يريد قلوبا تخضع، وقلوبًا تخشع، فما دام القلب خاشعًا، فالله عنه راضٍ حتى ولو أجبر على غير ذلك، ولهذا فقد أُسْقِطَ الحساب على كل من أُكره قالبه على شيء وقلبه يرفضه(٢) .. فأنت إذا أمسكت عصًا غليظة وأجبرت إنسانًا على الصلاة، وقلبه لا يريد الصلاة ويرفضها فلا صلاة له. وأنت إن أكرهت إنسانًا على فعل منكر وقلبه يرفضه فلا حساب عليه، ذلك لأن الله سبحانه يسقط عنه الحساب.

الله سبحانه وتعالى لم يقيد حركتنا فى الحياة فى أشياء كثيرة منها.. من يفضل شكل أثاث، أو يحب لونًا من الطعام وآخر لا يحبه. إذن هناك أشياء الاختيار فيها لا يخرجنى عن محبوبية الله سبحانه فيما ينفع الناس وفيما يضرهم.

إذن المحبوبية لله سبحانه وتعالى فهل المؤمنون على قدر سواء فى هذا

(١) سورة النحل: من الآية ١٠٦ عن أبى عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ قال: «ما وراءك» قال: شر يارسول الله ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان، قال: «إن عادوا فعد».

أخرجه الحاكم رقم [٣٣٦٢] وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» حديث صحيح صححه الألبانى فى الإرواء رقم [٢٥٦٦].

الحب؟.. لا، لأن درجات الإيمان تتفاوت عند الناس، ولذلك هناك من هو أرقى في العبودية عن غيره ذلك..

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١).

لأن هناك كريم وأكرم.. أي هناك منازل، هناك الأعلى وهم الأتقياء، والتقوى أعلى درجات الإيمان ولكن الأتقياء غير معصومين، وهناك الأنبياء وهم معصومون، وسيد المرسلين محمد ﷺ هو أسوة الخلق كلهم لأنه يمثل العبودية الحقة لله سبحانه فيكون.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (٢).

عبودية مرادها محبوبية لله وهي درجات فهناك: تقي وأتقى، ثم كريم وأكرم، ثم ترتقي العبودية إلى أن تصل في أعلى درجاتها إلى عبودية الأنبياء.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣. عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب في الناس يوم فتح مكة. فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم غبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برتقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من التراب قال الله: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾.
أخرجه الترمذي رقم [٣٢٧٠] وقال: حديث غريب وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٦٠٨].

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

٣
الصلاة ترجمة ليقين القلب

لـو نظرنا إلى أركان الإسلام لوجدناها بنيت على خمسة أركان، أولها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وهذه مطلوبة ليقولها الإنسان فى العمر مرة واحدة.

والركن الثانى هو: فريضة إقامة الصلاة، والصلاة خمس أوقات تقام ولا تسقط أبداً، بينما الزكاة تسقط إن كنت فقيرا، وكذلك يسقط الصوم عن المريض والمسافر، أما الحج فهو فريضة على من استطاع.

الله سبحانه وتعالى أبقى للإنسان ركناً من هذه الأركان لا يسقط عنه أبداً وهو الصلاة فهى تؤدى..

*** قائماً.**

*** جالساً إن لم تستطع واقفاً**(١).

(١) عن عمران قال: سألت النبى ﷺ عن صلاة الرجل وهو قاعد فقال: «من صلى **قائما** =

* **فإن لم تستطع جالساً فراقداً**[1].

* **أو بعينيك إن لم تستطع راقداً،**

* **وإن لم تستطع بأيٍ ـ مما ذكر ـ فتؤديها بقلبك.. بخاطرك.**

إذن الصلاة هى الركن الذى لا يسقط عن الإنسان حتى يخرج من الحياة الدنيا ما دام عاقلاً، فقد جمع الله سبحانه فيها كل **أركان الإسلام** ذلك..

* وأنت **تصلى** تكون متجها إلى البيت الحرام ـ الكعبة المشرفة ـ فهذا من **الحج**.

* وأثناء **الصلاة** تكون فى صوم عن الطعام والشراب والشهوة، فهذا هو **الصوم**.

* **والصلاة** فى أدائها تأخذ وقتًا، وقتا من العمل، والعمل هو مصدر الرزق.. فلو أن الصلوات الخمس فى النهار والليل أخذت من وقتك ساعة من الزمن، فإنك لو أديت عملك فى هذه الساعة لاستطعت أن تربح مالاً من عمل قد يكون بيعًا أو شراء وهى أعمال تأتى لك بالرزق[2]، لكنك قضيت هذه

= فهو أفضل، ومن صلى **قاعدا** فله نصف أجر القائم، ومن صلى **نائما** فله نصف أجر القاعد». أخرجه البخارى رقم [١١١٦].

(١) عن عمران بن حصين ﷺ قال: كانت بى بواسير، فسألت النبى ﷺ عن الصلاة فقال: «صل **قائما**، فإن لم تستطع **فقاعدا**، فإن لم تستطع فعلى **جنب**» أخرجه البخارى [١١١٧].

(٢) قال قتادة: إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة حرم الشراء والبيع وقال ميمون بن مهران: كان بالمدينة إذا أذن المؤذن من يوم الجمعة ينادون فى الأسواق: حرم البيع. حرم البيع. (الدر المنثور ٣/ ١٦٣).

الساعة فى الصلاة، فكأنك أديت زكاة، أو تصدقت بالمال الذى كان مفروضًا أن تكسبه فى هذه الساعة أو فى هذا الوقت.. إذن فالصلاة فيها زكاة.

* ومن شروط أداء الصلاة: **شهادة لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله** هذه يقولها الإنسان قبل كل صلاة وفى كل صلاة.

إذن الصلاة جامعة لكل أركانِ الإسلام الخمسة.. صلاة، وشهادة، وزكاة، وصوم، وفيها حج.

الصلاة هدى للقلب:

إن الله سبحانه وتعالى كما قلنا: أبقى للإنسان ركنًا من أركان الإسلام وهو الصلاة لا يسقط أبدًا، وأوضح سبحانه بأنها تؤدى بأية وسيلة سواء فى الصحة أو فى المرض، ولذلك فهى الفارقة بين المسلم وغير المسلم(١)، ولا تسقط عن الفقير أو عن الغنى فهى.. عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين(٢).

(١) عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة. فمن تركها فقد كفر» أخرجه الترمذى [٢٦٢١] وقال: حديث حسن صحيح غريب. وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٧٦٩].

(٢) عن بلال بن يحيى قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله فقال: «الصلاة عمود الدين...». وهو حديث مرسل ورجاله ثقات. تلخيص الحبير (١/ ١٧٣).

وعن جابر بن عبد الله ﵄ قال: قال ﷺ: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة».

(صحيح سنن الترمذى ٢١١٣).

فكل التكاليف التى تقوم بها الجوارح لا بد أن تصدر عن ينابيع الإيمان فى القلب، فالإسلام لرب العالمين هو أن نفعل ما أمر الله به، وننتهى عما نهانا عنه، فالجوارح تترجم اليقين فى القلب إلى عمل، وأول عمل للجوارح نابع من هُدَى القلب هو الصلاة. وهكذا نرى أن فى الهدى ثلاثة أشياء:

الأول: إسلام الزمام لرب العالمين.

الثاني: أن تكون حركتنا فى الوجود طبقاً للمنهج.

الثالث: البعد عن المحارم والمعاصى.

والصلاة(١) هى الأمر الذى جاء بعد الشهادة، فالإنسان يؤديها كل يوم فى الحياة لا تنتهى ولا تسقط عن الإنسان، بينما الأركان الاخرى بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله هذه الأركان الأخرى قد تؤدى وقد لا تؤدى، فقد لا تزكى لأنك فقير، ولا تصوم لأنك مريض أو مسافر، وقد لا تحج لأنك لا تستطيع، ولكن الصلاة مفروضة على المسلم البالغ العاقل فى اليوم والليلة خمس مرات(٢).

(١) ولا تجب الصلاة إلا على كل مسلم بالغ عاقل طاهر. فأما الكافر فإن كان أصليا لم تجب عليه، وإذا أسلم لا يخاطب بقضائها لقوله تعالى ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**﴾ سورة الأنفال الآية ٣٨ ولا تجب على الصبى لقوله ﷺ فى الحديث الذى رواه على بن أبى طالب: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبى حتى يشيب، وعن المعتوه حتى يعقل» صحيح. صحيح سنن الترمذى: [١١٥٠].

(٢) عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلوات كتبهن الله تعالى على عباده فمن أتى بهن ولم ينقص منهم شيئا، فإن الله جاعل له عهدا يوم القيامة أن يدخله الجنة» صحيح سنن النسائى [٤٤٧].

فإنها لا تسقط عنه أبداً إلا فى حالة الجنون[١].

والله سبحانه وتعالى الآمر لنا ونحن المأمورين.. أسلمنا طاعة له.. قال: أسلموا فأسلمنا، وإقامة الصلاة وهذا أمر الله سبحانه لنا. والله سبحانه حين يأمر بفعل أو ينهى عن آخر فأنت صالح للأمر وصالح للنهى، ذلك لأن الإنسان مخلوق على هيئة يستطيع معها أن يفعل ولا يفعل، ويستطيع أن يطيع ويعصى.. تلك هى خصوصية الاختيار فى الإنسان.. بينما الكون كله لا يملك اختياراً.. الشمس لا تستطيع أن تشرق أو تغرب حسب رغبتها، والهواء ليس حرّاً فى أن يحيط بالأرض أو يتركها إلى مكان آخر، والأرض ليست حرة فى أن تدور أو تتوقف عن الدوران.. لكن حرية الاختيار أعطاها الله سبحانه للإنسان[٢] وحده ميزه أن يختار بين البدائل فى أن يفعل أو لا يفعل. فأرسل الله من يبصر الإنسان بالخير لنفسه فيقول له: افعل هذا، ولا تفعل ذلك.. بينما مأساة البشرية فى أنها تنتقل من مجال افعل إلى لا تفعل، ومن مجال لا تفعل إلى فيما قال عنه الله افعل.

❊ ❊ ❊

(١) قال الماوردى: يسقط فرض الصلاة بالإغماء والجنون، والحيض، والنفاس. الحاوى الكبير [٢/ ٤٨].

(٢) لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

٤
مقيمو الصلاة

المسلمون

المقيمون للصلاة والمحافظون على إقامتها فى أوقاتها هم الذين قال الحق سبحانه وتعالى عنهم:

﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١).

والملاحظ للنسق الأسلوبى سيجد أن هناك اختلافًا فيما يأتى من قول الحق سبحانه: ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ ﴾ .. فقد بدأ الحق قوله: ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي

(١) سورة النساء: الآية ١٦٢.

الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ من قَبْلِكَ﴾ .. ذلك أن النسق الإعرابى للأسلوب يختلف، فكيف جاء الحق هنا بـ.. ﴿ **وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ**﴾ ونحن نعلم أن جمع المذكر السالم يرفع بالواو ويجر بالياء، فهنا نجد ﴿ **الْمُقِيمِينَ**﴾ مجرورة رغم أنها معطوفة على مرفوع. وعلماء اللغة يسمون ذلك: بكسر الإعراب.. فالإعراب عامة يقتضى حكماً، وهنا نلتفت لكسر هذا الحكم، إذ أن الأُذن العربية التى نزل فيها القرآن طُبِعَتْ على الفصاحة، لذلك تنتبه لحظة كسر الإعراب.

إن الأمة العربية هى أمة فصاحة وبلاغة وبيان، لذلك فعندما يسمع العربى لحنًا فى اللغة فهو يفزع، وكلنا يعرف قصة الأعرابى الذى سمع خليفة من الخلفاء يخطب فلحن الخليفة لحنة فصرّ الأعرابى أذنيه.. أى جعل أصابعه خلف أذنيه يديرها ليسمع جيداً ما يقوله الخليفة، ثم لحن الخليفة لحنة أخرى.. فهب الأعرابى واقفاً، ثم لحن الخليفة لحنة ثالثة، فقال الأعرابى: لحناً ثالثاً للخليفة!!.. أشهد أنك قد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر.. أى إنه قال للخليفة: أنت لا تستحق أن تكون فى هذه المكانة!!.. وهذا يدل على أن الأعرابى يقظ. فعندما تأتى كلمة فى القرآن الكريم، الذى يتحدى الفصحاء، وفيها كسر فى الإعراب كان على أهل الفصاحة أن يقولوا: كيف يقول محمد إنه يتحدى بالفصاحة، وهو لم يستقم له الإعراب؟.. لكن أحداً لم يقل ذلك، مما يدل على أنهم تنبهوا إلى السر فى كسر الإعراب، وهذا ما يلفت الحق سبحانه كل نفس إلى استحضار الوعى بهذه القضية التى يجب أن يقف الذهن عندها لـ.. ﴿ **والْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ**﴾[1] .. لأن الصلاة هى العماد الأساسى للدين.

(١) **﴿والمقيمين الصلاة﴾** منصوب على المدح، فالمعنى: اذكر المقيمين الصلاة، وهم المؤتون الزكاة. (زاد المسير: ٢/ ٢٢٠).

وأركان الإسلام الخمسة كل ركن منها له وقت معلوم، وله زمن زمن، وله مناط تكليف ذلك أن:

* لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله يكفى أن يقولها المسلم ولو مرة واحدة فى العمر،

* والصوم شهر فى العام، وقد لا يصوم الإنسان الذى أخذ رخصة الإفطار إن كان له من واقع حياته من أسباب الأخذ برخص الإفطار،

* والزكاة يؤديها المرء كل عام أو كل زراعة،

* والحج قد يستطيعه الإنسان، وقد لا يستطيعه.

إذن الصلاة هى ركن أساسى للدين.. فإقامة الصلاة علامة على إقامة الإنسان للدين.. ذلك كما يقول الله سبحانه وتعالى فى أسباب دخول المجرمين النار:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾(١).

ولقد قلنا سابقًا إن أركان الإسلام شىء، وأركان المسلم شىء آخر، ذلك أن أركان الإسلام خمسة، ولكن من الجائز ألا يستطيع المسلم إقامتها كلها، بل قد يقيم فقط منها ركنين اثنين هما: الشهادة، وإقامة الصلاة.

والحق سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ﴾ .. كان بذلك

(١) سورة المدثر: الآيات ٤٢/ ٤٣.

يلفت كل مؤمن إلى استمرارية دوام القرب من الله غير أن المؤمن قد يتعبد الله شهراً فى السنة بالصيام، أو يتعبد الله بإيتاء الزكاة كلما جاءه محصول من الزراعة أو جاءه مال، ويتعبد الله إن استطاع الذهاب إلى الحج.. لكن أن يقف الإنسان لله فى كل يوم خمس مرات فذلك استدامة الولاء الدائم له لأن الصلاة جمعت كل أركان الدين، وهى تحقق إذن الولاء الدائم لله..

والفرق بين أركان الإسلام، وأركان المسلم، هو أن..

*** أركان الإسلام هى.. أن نؤمن بها جميعاً.**

*** وأركان المسلم الثابت فيها هو أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن يقيم الصلاة، وقد يدخل فيها أن يصوم، أو أن يزكى، أو أن يحج.**

والمسلم حين يأتى بالأركان جميعها تكون قد اتفقت أركان الإسلام مع أركان المسلم.

❊ ❊ ❊

٥
التزام لا اختيار

الصلاة هى الركن الأساسى فى الإسلام الذى يتكرر خمس مرات فى اليوم ولا يسقط أبداً.. بينما الأركان الأخرى، نجد فيها أن..

* **شهادة** لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله يكفى أن تقولها فى العمر مرة واحدة.
* **والصوم** يسقط عن المريض والمسافر.
* **والزكاة** تسقط عن المسكين الذى لا يملك مالاً.
* **والحج** يسقط عن كل من لا يملك المال والصحة.

فلا يبقى إلا ركن الصلاة فهى لا تسقط عن الإنسان أبداً، ولعظم منزلتها أخذت من التكليف حظاً كبيراً، فكل تكليف من التكاليف جاء بواسطة الوحى

من السماء إلى الأرض إلا الصلاة جاءت بالأمر المباشر[1] يوم عُرِجَ بالرسول ﷺ إلى السماء السابعة.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

جاءت الصلاة أول شيء ذكره الله فى الآية الكريمة؛ لأنها لا تسقط أبداً. أما النُسُكْ فهو يشمل كل أنواع العبادات مصداقًا لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[3].. ويطلق النسك خاصة على أفعال الحج، فهى تسمى.. مناسك الحج، فهناك نُسُكْ الطواف، ونسك السعى، وهى مأخوذة من النسيكة وهى.. السبيكة من الفضة تصهر لينقى منها كل الشوائب العالقة بها فتصبح نقية خالصة.

ومعنى النسك تصفية العبادة لله من كل الشوائب التى يلحقها بعض الناس بها، كما تصفى سبيكة الفضة من كل المعادن التى تختلط بها لتصبح نقية.

(١) جاء فى الحديث الطويل الذى رواه مالك بن صعصعة: أن نبى الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به فقال: «... ثم فرضت علَّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال بما أمرت...» أخرجه البخارى [٣٨٨٧].

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.
يأمر الله نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم فى ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له.
وقال مجاهد: النسك هو الذبح فى الحج والعمرة ـ (تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٩).

(٣) سورة الحج: من الآية ٦٧.
يخبر الله تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً قال ابن جرير: «يعنى لكل أمة نبى منسكاً».
وأصل المنسك فى كلام العرب هو الموضع الذى يعتاده الإنسان، ويتردد إليه إما لخير وإما لشر، ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لتردداد الناس إليها.

فالإنسان له أمران اختياريان فى حياته، وأمران لا اختيار له فيهما..

* الاختيار فى الصلاة والنسك.

* لا اختيار فى الحياة والموت.. أى لا يدخلان فى قانون الاختيار.

الصلاة إذن نسك لأنك ما صليت إلا لأنك آمنت بالآمر بالصلاة، وما صليت إلا بكل طاقات انفعالك له.. فأنت تتجه إلى الله سبحانه بالقلب والعقل، والجوارح التى لها عمل فى الصلاة سواء فى الركوع، أو السجود أو القيام.. فأنت بفعلك هذا وجهت الطاقات المخلوقة لله فى طاعة المنهج الذى أنزله الله، فهى كلها من الله سبحانه، فأنت استخدمت العقل المخلوق لك من الله، والطاقة المخلوقة لك من الله، والمنهج الذى جاءك من الله.. فإذا أردت أن تنسب كل فعل فيجب أن تنسبه إلى فاعله وهو الله سبحانه وتعالى.

ولكن لماذا قضى الله سبحانه وتعالى بشيئين اختيارين مع أمرين لا اختيار للإنسان فيهما؟.. نقول: إن الاختيار من الله، فنحن مختارون لأن الله سبحانه وتعالى شاء لنا ذلك ثم جاء المنهج لتتحد أفعالنا مع مرادات الله منا، فنصبح فى هذه الحالة قد وضعنا أنفسنا فى نفس الدرجة من العبادة والطاعة مع المقهورين لله، ولكننا لنا امتياز عنهم فى أننا أتينا إلى الله بحب واختيار ولم يقهرنا الله سبحانه وتعالى عليها، فنحن الذين اخترنا بمشيئة الله سبحانه أن تخضع أفعالنا لما أراده الله فزادنا الله مرتبة عن المقهورين للعبادة.

إذن معنى إن.. صلاتى لله، ونسكى لله هى أن أخلص فى صلاتى وأجعلها لله..

* لا تُصَلِّ مرائياً.

* ولا تُصَلِّ نفاقاً.

* ولا تُصَلِّ سمعة.

فإذا أديت النسك ـ نسك الحج مثلاً ـ فلا تذهب لتحصل على لقب، ولكن اجعله لله.. لماذا؟.. لأنك لو جعلته لغير الله، فإنك تجعله لمن لا قدرة له فى أن يجزيك.. فإنك أعطيت ولم تأخذ إلا الخسارة لكن.. اجعله لله الذى يعطيك الأجر.

❊ ❊ ❊

٦
التطهر استعدادا لمهابة اللقاء

الإنسان هو صنعة الله، فعندما يذهب إلى لقاء صانعه الأكرم، فإن صانعه هو الذى يصلح له ما يصيبه من عطب، فقد لا يدرى الإنسان أى نوع من العطب قد أصابه.

فالله سبحانه وتعالى يتجلى على الإنسان بالعديد من الفيوضات من نعمه، وهذه النعم قد يراها الإنسان سواء كانت طعاماً أو شراباً، كذلك غيرها من النعم قد لا يراها الإنسان فهى نعم لا تعد ولا تحصى[1]، ومن أجل أن يحصل الإنسان على نعمة من هذه الفيوضات يُتطلب منه أن يذهب إلى الله سبحانه فى تطهر من أجل أن يتحقق هذا اللقاء بربه وذلك لأجل أن يتم نعمته عليكم.

والحق سبحانه وتعالى يحقق مطلوب هذا اللقاء فى قوله:

(١) ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ سورة النحل: الآية ١٨.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[1].

الحق سبحانه يقول: ﴿ **لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى** ﴾ .. ولم يقل: لا تصلوا وأنتم سكارى، ولا تقوموا إليها واجتنبوها فذلك فيه إشارة إلى ترك المسكرات وذلك فى المراحل الأولى لتحريم الخمر.

الأمر الإلهى هو أن لا يقترب الإنسان من الصلاة وهو..

*** فى حالة سكر.**

*** أو عائد من الغائط (بعد قضاء الحاجة).**

*** أو عليه جنابة.**

*** أو بعد ملامسة النساء.**

الإنسان فى إحدى هذه الحالات لا يقترب من الصلاة، فذلك ليس أمراً فقط، فالأمر هنا مشدد.. هو بعدم القرب، بل عليه أن يتطهر بالاغتسال.

التطهر إذن هو عملية استعدادية للصلاة لأنك ستقوم إلى شىء غير عادى،

(١) سورة النساء: الآية ٤٣.

إذ أنك في الصلاة ستلتقي بربك فلا بد أن تكون على طهارة، فإن لم تجد الماء فقد أمرك الله سبحانه بالتيمم حتى يثبت أمر الطهارة والنظافة فذلك استعداد لمهابة اللقاء، ولذلك كان بعض الصالحين ومنهم سيدنا على زين العابدين إذا قام للوضوء اصفر وجهه فلما سألوه عن ذلك قال: آه لو علمتم إلى من أستعد للقائه والوقوف بين يديه.

والحق سبحانه وتعالى يريد لنا أن نستديم معه فى اتصالنا به فلم يشأ أن يجعل الوسيلة التى لا تقبل الصلاة إلا بها وهى الوضوء بالماء فقط، فقد لا يوجد الماء، أو يوجد الماء ولا تقدر على استخدامه، فأوجد الحق سبحانه وسيلة أخرى وهى التيمم(١).

إذن شرط لقاء ربك فى الصلاة أن تكون متطهرا كى تكون معدا لهذا اللقاء، فذلك شرط يضعه الله سبحانه وليس أنت أيها العبد لأن الله يحب المتطهرين.

وكذلك عندما تدخل المسجد فيجب أن تعرف أن هذا المكان له قدسيته، فترتدى أحسن الثياب حتى لا يثير منظرنا النفور فى نفس أحد المصلين فلا بد..

* أن نكون محافظين على نظافة أجسادنا حتى لا يتأفف من ذلك المصلى الذى يقف إلى جوارنا.
* أن تكون رائحتنا طيبة؛ ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن أكل الثوم أو البصل قبل أن يأتى المسجد(٢) حتى لا يؤذى بالرائحة التى تصدر من فمه مصلٍّ

(١) **التيمم** فى اللغة: القصد. وفى الشرع: القصد إلى الصعيد لمسح الوجه واليدين بنية استباحة الصلاة ونحوها. واختلف العلماء هل التيمم رخصة أو عزيمة؟ وقيل: هو لعدم وجود الماء عزيمة وللعذر رخصة. (سبل السلام: ١/ ١٥١).

(٢) عن جابر بن عبد الله قال: إن رسول الله ﷺ قال: «من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو ليعتزل مسجدنا. وليقعد فى بيته». أخرجه مسلم [٥٦٤].

آخر يصلى بجانبه، فلا بد أن تكون الإقامة طيبة، والأفئدة منشرحة.

ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1].

والزينة هى تجميل الشىء.. فكل شىء له قوامه، وله تجميل وزينة، فهل نأخذ الزينة على أنها الفاخر من الثياب، أم نأخذها على أنها سترعورة؟.. فقد كانوا فى الجاهلية يطوفون حول البيت عراة!!..

لكن المسجد هو المكان الذى يجتمع فيه عباد الله للصلاة، فلا تذهب وأنت ترتدى ملابس تؤذى بها غيرك، كأن تكون ملابسك غير نظيفة، أو بها رائحة. فإذا كنا نحرص على أن لكل مناسبة لباس، لا بد أن يكون هناك حد أدنى للملابس التى تذهب بها إلى المسجد حتى لا تُنَفِّرْ المصلين من الملابس التى ترتديها أو من رائحتها.

الغسل من الجنابة:

الجنابة مسألة معروفة، إذ إنها الأثر الناتج من التقاء الرجل بالمرأة، ويقال: إنها اللذة التى يغيب فيها فكر الإنسان عن خالقه، ويقال عنها جماع اللذات فهى تصنع فى البدن الرعشة المخصوصة التى تضم خلاصة اللذات، لذلك قال الأثر الصالح: إنه نور عينيك، ومخ ساقيك.. فأكثر منه أو فأقل.

وعندما يغتسل الإنسان بعد الجنابة فأنه يعيد النشاط إلى النفس البشرية،

(١) سورة الأعراف: الآية ٣١.

ونحن ملتزمون بأمر الحق سبحانه بالغسل بعد الجنابة دون سؤال عن حكمة ذلك ففى تنفيذ أمر الحق طاعة، والطاعة لله مطلقة.

ولكن الحق يضع القواعد التى تخفف عن النفس البشرية والتى تفهم ظروفها فقد قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا** ﴾[1]. ذلك أن الصلاة مكانها المسجد، والأمر لنا ألا يقرب الإنسان الصلاة وهو فى سكر.

الله سبحانه يقول: ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ ولم يقل: لا تصلوا وأنتم سكارى، أى لا تقاربوا الصلاة ولا تقوموا إليها واجتنبوها، وفيه إشارة إلى ترك المسكرات، فما معنى ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾؟ معنى ذلك أنهم إذا كانوا لا يقربون الصلاة إذا ما شربوا الخمر، فيكون تحريم المسكرات لم يأت به التشريع بعد، فقد مر هذا الأمر على مراحل، لأن الدين حينما جاء ليواجه أمة كانت على فترة من الرسل أى بعدت صلتها بالرسل، فيجىء إلى أمر العقائد فيتكلم فيها كلامًا حاسمًا باتًا لا مرحلية فيه، فالإيمان بإله واحد وعدم الشرك بالله هذه أمور ليس فيها مراحل، ولا هوادة فيها، لكن المسائل التى تتعلق بإلف العادة، فقد جاءت الأوامر فيها مرحلية، فلا نقسر ولا نكره العادة على غير معتادها بل نحاول أن نترج فى المسائل الخاضعة للعادة ما دام هناك شىء يقود إلى التعود.

(١) سورة النساء: الآية ٤٣.

إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بمن يشرع لهم جعل فى مسائل العادة والرتابة مرحليات، فهذه مرحلة من المراحل: ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ والصلاة هى: الأقوال والأفعال المعروفة المبدوءة بالتكبير والمنتهية بالتسليم بشرائطها الخاصة، هذه هى الصلاة، اصطلاحيا فى الإسلام وإن كانت فى المعنى اللغوى العام هى: مطلق الدعاء.

و«سُكارى» جمع «سكران» وهو شرب ما يستر عقله، وأصل المسألة مأخوذة من السَّكْر ما سد به النهر، فالماء حين ينساب يضعون سدا، هذا السد يمنع تدفق الماء، كذلك الخمر ساعة يشربها تمنع تدفق الفكر والعقل، فأخذ من هذا المعنى: ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ المفهوم أن الصلاة تأخذكم خمسة أوقات للقاء الله، والسّكر والخُمار، وهو ما يمكث من أثر المسكر فى النفس، وما دام لن يقرب الصلاة وهو سكران فيمتنع فى الأوقات المتقاربة بالنهار. إذن فقد حملهم على أن يخرقوا العادة بأوقات يطول فيها أمد الابتعاد عن السكر، وما داموا قد اعتادوا أن يتركوها طول النهار حتى العشاء فهذه هي المرحلة الأولى من تحريم الخمر.

كذلك الإنسان لا يقرب الصلاة إذا كان عليه جنابة... إنه أمر ليس بعدم الصلاة فقط، ولكن الأمر هنا مشدد.. إنه أمر بعدم القرب من الصلاة، فقد قال العلماء: إن الإنسان لا يقرب الصلاة وهو جنب إلا إذا كان لا يجد طريقاً للماء، أو للظروف الإنسانية الأخرى وهى فى قوله تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً... ﴾.

فماذا نفعل؟.. الغائط هو الأرض المنخفضة، فقد كانوا يقضون فيها الحاجة، وأصبح ذلك علمًا على قضاء الحاجة، فنحن نطلق عليها أسماء أخرى مختلفة كدورة المياة وغيرها من الأسماء، وهذا تلطف فى الإخبار عن عملية تستقذرها النفس قليلاً فهناك عبارة شعبية تعبر عن تلك العملية: (أنا ذاهب لأفعل مثل ما يفعل الناس).. وهذا يعنى أن الإنسان ليس بدعًا فيما يفعله، بل يشاركه فى ذلك كل الناس.

أما عن الطهارة من ملامسة النساء، فنحن لا نريد أن ندخل فى متاهات الخلافات بين اللمس والملامسة. فاللمس لا يقتضى المفاعلة، أما الملامسة فتقتضى المفاعلة، واقتضاء المفاعلة ينقل المسألة من مجرد اللمس إلى معنى آخر هو الجماع.. وهو حالة الجنابة.

والمصلى إذا كان مريضاً ولا يقدر على استعمال الماء، أو كان على سفر ولا يجد الماء، أو جاء من الغائط.. ولم يوجد الماء فإياكم أن تقولوا: إن الماء هو الوسيلة الوحيدة للتطهر، فالله جعل للماء أيضًا بديلا وهو التراب، والتراب أوسع دائرة من الماء. فكأن الله يريد أن يديم علينا نعمة اللقاء به، فحين يديم علينا نعمة اللقاء به فجعل للماء الذى كان محصوراً ـ الغير متواجد ـ بديلا وهو التراب وهو غير محصور.

أى أن الطهر مطلوب قبل الصلاة، فإن لم يوجد الماء فلينفذ أمر الله سبحانه

وهو التيمم بمسح الوجه واليدين.. ذلك رحمة من الله سبحانه بأمة محمد ﷺ ولطف من الحق سبحانه في بيان التشريع ليقبل عليه الإنسان.

والسماح بالتيمم ـ بالتراب ـ يكون في حالة عدم وجود الماء بالنسبة لـ..

* **الجنابة.**
* **أو الغائط.**
* **أو ملامسة النساء.**
* **أو أية أعذارٍ أُخْرى من مرض أو نحوه.**

والتيمم[1] يختلف عن الوضوء ولا يتطلب نفس أركان الوضوء.. ففي الوضوء بالماء تكون المضمضة، والاستنشاق وغسل اليدين، ومسح الوجه، وغسل القدمين.. وهذا ما يكون في الوضوء أركانًا وسننًا. **ولكن يختلف الأمر هنا في التيمم فسواء كان التيمم للوضوء أو الجنابة فيكفي أن يمسح الإنسان وجهه ويديه، وبعض العلماء قال: يضرب الإنسان بيديه الأرض مرة واحدة للتيمم، والمسح للوجه واليدين، وبعض العلماء قال: يضرب الإنسان بيديه الأرض مرتين..** ذلك عفو من الحق، وفضل من الحق علينا ليجنبنا من المشقة في البحث عن الماء.

الأركان المفروضة في طهارة الأعضاء أربعة، أما طهارة الجسم فهي طهارة واحدة تشمل كل الجسد. ففي حالة التيمم جعل الحق الطهارة استعداداً للصلاة

(١) التيمم في كلام العرب معناه القصد، والتيمم ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، وهو رخصة وفضيلة اختصت بها هذه الأمة التي زادها الله بها شرفًا فلم يشاركها فيها غيرها من الأمم السابقة. والتيمم مختص بالوجه والكفين فقط سواء عن الحدث الأصغر أو الأكبر، وقد روى أبو أمامة وابن عمر ﷺ : أن النبي ﷺ قال: «التيمم ضربتان. ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين» (كتاب المجموع للإمام النووي ص ٢٢٤جـ٢).